# اصدع إلى الطريقة الصوفية

موضوع دقيق . لايحسن الكلام فيه إلا من يعيش فى البيئة الصوفية ويفهمها وإلا من ينبض قلبه مع الحياة الصوفية ، فيفرح لمظاهر نجاحها ، ويألم لما قد يلمسه من تقهقرها واندحارها .

وكلنا يعلم أن الصوفيه محل هجوم عنيف فى الفتره الحالية . حتى لقد وضعت حينا من الدهر فى ميزان الإبقاء أو الإلغاء . وجعل البعض يعدد عيوبها ومايحيط بها من مظاهر ويتوقع يوم بترها وإلغائها . إلا أن هذا الصوت مالبث أن خمد وخمل فقد كان صوتا نشازا ونعيقا ممن لايفهم ، إذلم يزعزع ذلك من الإيمان بالصوفية وإدراك قيمتها وبخاصة بعد النهضة الأخيرة التى صاحبت تعيين سماحه السيد شيخ الصوفية الحالى ، وظهور هذه المجلة التى نرى أنها أدت خدمة جليلة فى أطلاع الناس على حقيقة التصوف وإزالة الكثير من الأوهام

بقلم : الدكتور

## مصطفى كمال وصفى

التى علقت بالأذهان حوله .

ونظن أن خير خطة لعلاج هذا الموضوع أن نتطرق إليه على الوجه الآتى :

فنتكلم أولا عن أهمية الحياة الصوفية فى مصر .

ثم عن أظهر العيوب التى ظهرت فيها .

وأخيراً عن العلاج وطريقة الإصلاح الواجبة .

* * *

## أولا ـ أهمية الحياة الصوفية فى مصر

لاشك فى أن المتتبع للحياة المصرية من قديم الأزل ، يلحظ ما تميز به هذا الشعب العريق من تقدير المعنويات والتأدب بكريم الأخلاق . وفيما عدا بضعة عشرات السنين الأخيرة ـ فقد أزدادت على مر السنين الصفات الأدبية رسوخا فى قلوب المصريين ورسبت فى نفوسهم مع أثار مدنية آلاف السنين .

وقد لازمت الروحية حياة مصر من فجر تاريخها وكانت دائماً مناط عظمتها وقوتها . فقد بلغت هذه الحياة شأواً بعيداً فى عهد قدماء المصريين ، وفى ظلها سادوا العالم وبزوه حضارة ورقيا . وفى عهد المسيحية كانت الحياة الصوفية فى مصر مضرب الأمثال وظهر فيها كثير من القديسين والأبطال الصوفيين وفى عهد الإسلام ازدهر التصوف فى مصر وظهر فيها الكثيرون من أئمة الصوفية الذين كانوا منارآ هاديا للشعب ، ونبعت الكثير من الحركات التحريرية عنهم . ولا شك أننا نذكر مواقف بعض الصوفية أيام المماليك والعثمانيين وغيرهم ، كالسيد البدوى الذى كان له نصيب فى نصر المصريين على الصليبيين ، وأبى السعود الجارحى الذى عبأ البلاد وشحذ همة أمرائها عند هجوم العثمانيين عليها ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذى كانت له أدوار باهرة أبان الحملة الفرنسية وولاية محمد على . ومازال هذا دأب الشعب المصرى إلى الآن ، يثق فى القيادة الروحية ويأنس إليها ، ويحتاجها احتياج الرضيع إلى ثدى أمه .

ومن أجل ذلك فان الإرشاد الروحى ، حاجة من الحاجات الاساسية فى هذه البلاد ، وخدمة يحتاجها الناس جميعا ولا يستغنون عنها . وبتقدمها ورقيها تتقدم النفوس وتزدهر وتقوى روحها

المعنوية ، وبتقلصها تتكدر وتلتوى وتركبها عوامل الضلال والنفاق . ولا نظن أن هذا هو حال شعوب الأرض جميعا ، ولكننى أرى ذلك واضحاً فى كل مصرى ، وألمسه فى خلق كل واحد منا .

وإذا أصبحت خدمة من الخدمات وحاجة من الحاجات عامة بهذا الشكل وتوقفت عليها مصلحه عامة للمجتمع كله ، سمى ذلك « مرفقا عاما » وهذا المرفق العام يستدعى عناية الدولة حتى تضمن حسن سيره واضطراده وانتظامه . وقد شهدت أحكام مجلس الدولة بأن التصوف مرفقا عاما . وقد ارفقنا بهذه المقالة حكما من هذه الأحكام التى أكدت هذا المعنى وبينته بوضوح .

فهذه إذن هى النظرة الواجبة للتصوف ، وهذه هى حقيقة مهمته وأهميته فى هذه الامة بصفة خاصة وإنى أرى أن التصوف هو أعظم جامعة شعبية فى هذه البلاد ، وأقوى وسائل الإرشاد القومى الصميم فيها ، الذى يتغلغل إلى أقصى صميم طبقات هذا الشعب وإلى سويداء قلبه ومنابع عواطفه . وأن الصوفيه فى داخل نفوسنا وفى صميم قلوبنا أردنا أم لم نرد ، ولن يزيدنا البعد عنها إلا خبالا وضلالا وتعقيدا ، ولن نرتق ونتقدم ويصلح حالنا إلا بنهضة روحية صالحة واعية .

إن الصوفية فى هذه البلاد تمنع الجرائم وتمنع تفشى الكثير من العيوب والانحرافات التى بدأت تظهر فى الجهات والأطراف التى جفت منها معالم هذه الحياة ولم تعد نبضات القلب الصوفى ترسل إليها الدماء .

وكم من مجرم تاب وأناب على أيد الصوفية ، ولم تكن السلطات تقهره .

وكم من فلاح ومواطن أمين تمسكه مجالس الذكر فى المساء عن ارتياد أماكن اللهو المحرم والاتفاقات الجنائية ، وإذا انتكصت الصوفية أستشرى الداء وعم الظلام .

وأعجب أشد العجب من منتقد يقول أن الصوفية يندس فيهم ذوى السير المعوجة . من هؤلاء أعجب وأدهش : هل يظنون أن جامعة

الهداية والأرشاد لاتقبل فى صفوفها المحتاجين إلى الأرشاد ؟ هل لايعلمون أن الصوفية هى باب التوبة والرجوع إلى الله ، فكيف يغلق باب التوبة إذن فى وجه التائب الراجع؟ وأين يجد هذا الضال صدراً حنوناً وعينا تذرف عليه الدمع إذا صده باب الله وطرده منه ؟

أن الصوفية بالضرورة لابد أن تضم إليها ذوى الماضى . . لأن وظيفتها هى أن يدخلوها مدنسين من أحد الأبواب ، فيخرجون من البـاب الآخر مطهرين وأن كان الأمر يستدعى فى كثير من الأحيان فصل الذين ينصلحون أو الذين يرتكبون أعمالا تسىء إلى سمعه الطريق .

ونحن بالضرورة لن نكف عن أستقبال مرضى القلوب جرحى النفوس لان هذه وظيفتنا ، وهذا هو وجه لزومنا لهذا المجتمع . فنحن وجدنا لنفتح أذرعنا للذين ضاقت عليهم أنفسهم ، ولكى نكون قلوبا لمن تعطلت قلوبهم وسكنا وراحة لمن لاسكن له .

ولن تكون من القسوة حتى نطرد من سقط نصده عن سبيل الله . ولن نكون من الرياء بحيث ننظم موكبا من الاطهار والأبرار نباهى به الناس . فكفى هذه الأمة مواكب للنفاق . ولا تفاخر الصوفية بأن بين أبنائها المخلصين كثيراً من رؤساء وقادة وزعماء ووزراء ومستشارون وغيرهم من أفاضل هذه الأمة ووجوهها . وهذا النفر من الخيار الافاضل أكثر بكثير مما يظن من لايعلم . بل سيدهش ويضج دهشة كلما تكشفت له حقيقة العدد الهائل من المتصوفين الصادقين من كبار رجال هذه الأمة . ولكنهم يتدارءون ويختفون اجتناباً للسمعة والنقد . وأن كان يحسن بهذا النفر من المخلصين لو ظهر بأخلاصه ليعز طريق الله يضفى عليه قوة ويمنع عنه الكثير من أسباب الهزؤ والسخرية . وليقوموا بواجبهم المفروض فيهم والمطلوب منهم .

* * *

ولقد كانت الحياة الروحية فى

هذه البلاد بخير حتى أصيبت بكارثه الاعجاب بكل ماهو أجنبي . وكان ذلك فى أواسط القرن الماضى وتغالى الخديويون سعيد واسماعيل وتوفيق فى هذا السبيل . وترك ذلك أثرا عميقا فى الحياة المصرية . ذلك هو تخريب القديم المستقر المتعارف عليه ، وهدم الأصول والاسس ، ثم محاولة ارتجال مايحل محل ذلك وما يقوم مقامه .

كان القديم الأصيل المتين هو تقليد وأصول متوارثه خلفا عن سلف ومبنى على أساس أحترام الشريعة الإسلامية وعوائد البلاد وعرفها المستقر وأحترام الكبير والقديم . فحل محل ذلك الاستخفاف بالعرف والأصول ، وتسفيه الكبير وتحقيره واتهامه بضيق الفهم والرجعية . ومن الغريب أن الكبير تقلص وأنكمش أمام تبجح الصغير فانهارت الاصول والعوائد . وأصبحت بعض الطبقات لاتقاليد لها ولا أصول لها ولا عرف . فكل شيء قابل لفجاءات التغيير والابتداع . وكل أمر يجرى وكأنه التجربة الأولى من نوعها . أصبحت المناسبات التقليديه كالخطبة والزواج والعزاء حقولا لتجارب غريبة . وبذلك ضاع ميراث آلاف السنين وتبددت حصيلة التجارب الطويلة التى جنتها هذه الأمة . وأضطرب معيار كل شيء .

ولنقارن ذلك بملاحظة أفلاطون عند زيارته لمصر من ثبات العادات والعرف والفنون فى مصر . وكيف أستقر ذلك كله عندهم على أجمل الأوضاع وأقربها للمثل إذ يقرر أنه « يقال أن هذه الإلحان التى يرددها المصريون طوال العصور الطويلة هى من تأليف الألاهه أيزيس . كما أن تماثيلهم ونقوشهم ترجع إلى بضعة آلاف من السنين ، ولست مغاليا حين أقول بضعة آلاف من السنين . » وقد أفاض فى ذكر آثار هذا الاستقرار فى حسن نظام الدولة وقوانينها وتقدم البلاد . ولست بطبيعة الحال ادعو إلى عدم التطور ، ولكنى لا أريد ألا نقبل على الهدم الشامل بهذا العزم المدمر وبدون سبب . بل

وهذه الدعوة تأثر بها أكثر علماء الدين ، والمثقفين ، وهم معذورون فى ذلك لأن الأصل هو الأخذ بالظاهر مادام لم يحدث للانسان علم بيقين وراء ذلك . وقد كان لهذه الآراء أسوء الأثر فى الحياة الصوفية ، إذ طمست بصائر الكثيرين عن الإئتناس بالسلف الصالح والاجلال له ، كما أن هذه الدعوى تغذى الكبرياء والجحود والتمرد . فما دام يقال ، أن محمدا لا فضل له عليك ، وأن لا كرامة لولى فكيف ينتظر أذن أن يعرف ولد لوالده فضلا أو تلميذ لمربيه قيمة .

هذه الظروف تضافرت على تشويه الحياة الروحية والقيم الأدبية والتقاليد فى مصر فأسلمت مصر الى الحالة العصيبة المحزنة التى نحاول جميعا علاجها وأبرزت فى الوقت ذاته أهمية الصوفيه والعودة الى طريق الله ، وتسكين هذا الشعب الى الصدر الحنون الذى ألفه وتربى عليه من البداية . وظهرت أهمية اصلاح مرفق الإرشاد الروحى والتصوف وضرورة العناية به لكونه أساس الأصلاح وحجر الزاوية فيه .

وفى العدد التالى سأعالج النقطه الثانية وهى أمراض الحياة الروحية والآفات الواجب علاجها فيها .

مصطفى كمال وصفى

---

# من الحان الحب الالهى

ذبت اشتياقا ووجدانا فى محبتكم
فآه من طول شوقى آه من كمدى

يدى وضعت على قلبى مخافة أن
ينشق صدرى لما خاننى جلدى

مازال يرفعها طورا ويخفضها
حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

محيى الدين بن عربى